جـــودة التعليـــم وطـــرق التدريـــس أســـاس فـــي تقدم الأمـــم ـ الحضـــارة الإسلاميـــة "أنموذجا"

أ.د. مختار بشير مختار العالم - كلية الدّعـــوة الإسلاميـــة.
أ. انتصار العجمي ابو القاسم - كلية التربية طرابلس ـ جامعة طرابلـــس.

تمهيد :

إن الحضارة العربية الإسلامية التي بلغت أوجها وسادت العالم لألف عام ، وأنتجت علماء أسسوا العلوم ، ووضعوا النظريات ، وأرسوا المناهج العلمية النظرية منها والتطبيقية والتي ما زال كثير منها سائدا إلى زمننا هذا كان وراءها مناهج تعليمية بلغت الغاية في الإتقان والجودة زاوجت بين الرقي بالعقل، والاهتمام بحاجيات البدن ، فلم تغلّ العقل ولم تكبت حاجيات البدن من الراحة والانبساط ، ولم تكن المناهج التعليمية عند المسلمين قوالب جامدة تقوم على التلقين والحفظ والاسترجاع ، كما لم تكن منبتّة عن واقع المجتمع وحاجياته ومتطلباته وأولوياته .

ولم تراع المناهج التعليمية عند المسلمين تعليـــم النشء وتربيته الدينية وسبل فلاحه في الآخـــرة فقط ، بل أولت المناهج التعليمية تنشئة المتعلم وتعليمه ما يقوم به صلاح دنياه أيضا، فالدنيا مزرعة الآخرة، ولا تصلح آخرة المسلم ما لم تصلح دنياه قال تعالى : (**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِـــرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**) ([1]) ، لذلك حرص المعلمون والمربون على اختيار أفضل المناهج التعليمية، وأرقى الوسائل التربوية في تكوين وتعليم النشء من العناية والرعاية ،وتهيئة المناخ العلمي، والنظر في احتياجات المتعلمين العلمية والمادية من توفير المعلم الكفء ،ومكان التعليم الرائق اللائق، وتفقّد الحالة الصحية والنفسية للطالب .

ومما لا شك فيه أن تعليم علوم الشريعة من أسمى الغايات، وأرفع الأهداف، فبمعرفة علوم الشرع نجاة للإنسان في دنياه وآخرته، كما- صلى الله عليه وسلم - : " **مَـــنْ يُـــرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِـــى الدِّيـــنِ**" ([2]).

ومن علوم الشريعة ما هو فرض عين يجب على كل مسلم تعلمه مما هو معلوم من الدّين بالضرورة ، لكن لا يعني ذلك غض الطرف عن العلوم الأخـــرى مما لا غنى للإنسان عن تعلمها كتعلم الحرف والصنائع ، وعلوم الفلك والطب والحساب ، بل جعل

الإسلام تعلم أصول تلك العلوم من فروض الكفاية، بحيث لو تركتها الأمة أثموا جميعا ، فعزة الإسلام وقوته وهيمنته على الأمم إنما يمكّن له بالاستعداد والأخذ بوسائل القوة والمنعة العسكرية والاجتماعية .

ويجمع علماء الشريعة على أن العلم المطلوب في الشرع نوعان:

1- **ما هـــو فـــرض عين** ، أي : ما يطلب تعلمه وجوبا من كل فرد مكلف ولا يعذر أحد بالجهل به، وهو ما يحتاج إليه الإنسان في إقامة دينه، وقبول عمله عند الله – تعالى- ، واستقامة معاملاته ومعاشرته للناس، ويدخل تحت هذا كله: تعلم أحكام العبادات، وتعلم أحكام المعاملات لمن يمارسها .

2- **ما هـــو فرض كفايـــــة :** وهو كل ما يحتاج إليه المجتمع من غير نظر إلى شخص بذاته . فإذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين كتعلم الصناعات التي يحتاج إليها الناس، وتعلم المهن التي لا غنى للناس عنها ، من خياطة وحياكة وغيرهما على قدر ما يحتاجون إليه. فإن لم يكن فيهم من يتعلم ذلك كانوا آثمين جميعا، يقول الإمام الغزالي :" أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغني عنه في قوام أمـــور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث، وغيرهما . وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين، فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات، كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الحجامة والخياطة فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله، وأعد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله " ([3])، وقد حرص المسلمون الأولون على تعلم كثير من العلوم. ونبغوا فيها. ولم يقتصروا على نوع معين من العلم، وقد أفادوا الأمة بل الإنسانية جمعاء بما تعلموه وبرعوا فيه، وأمثلة ذلك كثيرة([4]) ، وتخصيص قول النبي صلى الله عليه وسلم - : " **مَـــنْ يُـــرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فـــــي الدِّيـــنِ**" ([5]) .بعلم الفقه خطأ، والصحيح: شمول مدلول العلم لكل علم نافع مفيد للأمة وشئون الدين والدنيا ؛ إذ المراد بالفقه الوارد فيه (يفقهه) .هو الفهم والمعرفة بالدين الشامل للحياتين، لأن إطلاق (الفقه) على أحكام الحلال والحرام فقط اصطلاح متأخر عن عصر التشريع.، وبذلك كان الصحيح ما فهمه المحققون من أنه يشمل كل ما جاءت به الشريعة من مبادئ، وعقائد وأحكام وآداب وترغيب وترهيب

وغيرها (**وَنَزَّلْنَـــا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَـــــــيْءٍ**)[6]، وهذا لا يمنع من أن يكون العلم بالحلال والحرام أشـــرف العلوم التي رغبت فيها الشريعة، لاتصالها بتصحيح العبادات والمعاملات مما يؤدّي إلى الاستقامة في الحياة الدنيا والنجاة في الآخرة.

أهمية البحث :

تكمن أهمية البحث في معرفة أسباب تقدم وهيمنة الحضارة الإسلامية على جميع الحضارات في العالم ومعرفة خصائص أهم عامل من عوامل تطورها وارتقائها، وهو عامل التربية والتعليم ، والوقوف على خصائص البنية التعليمية والتربوية التي أخرجت أعظم العلماء ممن تميزوا بالعلم الموسوعي، ليس في علوم الشريعة فحسب؛ بل في كل مناحي المعرفة النظرية والتطبيقية ، مما جعلهم روادا في ابتكار النظريات، ووضع أسس العلوم في مجال الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء والفلك، وكل فروع المعرفة الإنسانية ،التي اعترف بفضلها الأعداء قبل الأخلاء وأقر بعظمتها ورفعتها المخالف قبل الموافق ، لعلنا بذلك نلتمّس طريقهم ونقتفي أثرهم حتى ننهض بالأمة كما نهضوا بها، وننفض عن أنفسنا استيراد مناهج من الغرب عقيمة النفع عديمة الفائدة.

مشـــكلة البحث :

تكمن مشكلة البحث في قلة المصادر والمراجع التي اهتمت برصد طرق التعليم والتنشئة عند المسلمين إبان الحضارة الإسلامية، فلم أقف على مصادر استقرأت طرق ووسائل التعليم عند المسلمين مفصلة ، وإنما هي مقتطفات من هنا وهناك .

أهداف البحث:

لن يكون لأمة حاضر ولا مستقبل ما لم يكن لها ماض تستمد منه قوتها وعزتها، وللأمة الإسلامية ماض ناصح البياض، مشرق البيان، فينبغي لنا تلمس أسباب نهضة الأمة بعيدا عن استيراد المناهج الهدامة، وابتغاء النظريات الباطلة، والاقتداء بالغرب في مناهجه التي راعت الجانب المادي على حساب حاجات الروح والنفس، كيف لنا أن تترك مناهج ووسائل تعليمية أرشد الخالق الكريم إليها ، ونبهنا لها رسوله الأمين - صلى الله عليه وسلم - ، لذلك فإن من أهداف هذا البحث دعوة المربين والمعلمين ومن لهم ارتباط بالتعليم والتربية إلى النظر في مناهج التعليم ووسائله التي ارتضاها واختارها علماء الأمة إبان نهضتها وازدهارها، ولا مانع من الاستفادة من المناهج التعليمية الغربية التي ليس فيها ما ينافي ديننا، ويتعارض مع معتقداتنا .

خطـــــــــــة البحث :

قُسِمَ البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث . ذُكِر في المقدمة أهمية البحث ومشكِلته وأهدافه.
المباحث: المبحث الأول : تطور طرق التعليم والمناهج عند المسلمين ، والمبحث الثاني :خصائص المناهج التعليمية والتربوية عند المسلمين،
الخاتمة : أهم النتائج التب توصل إليها البحث

المبحث الأول ــ تطور طرق التعليم والمناهج عند المسلمين:

المطلب الأول ـ طرق التعليم في العصور الأولى للدولة الإسلامية:

من المعلوم بداهة ارتباط التدريس منذ العصور الأولى بالدين لذلك وجدت منذ البداية مواضع لدراســـــــة القرآن والحديث، وكان هذا التدريس قائماً في أول الأمر بالمساجد؛ إذ لم تكن محل عبادة فقط ، بل كانت النّواة الأولى للمدرسة ، تلقن القراءة وتعلم الكتابة والعلوم الدينية واللغوية وغيرها... ، وكان للعديد من الفقهاء حلقات معروفة ، ففي العهد الأموي ومن قبل كانت البدايات في عصر الصحابة- حيث كانت المساجد مفتوحة لكل من يأنس في نفسه القدرة على التدريس، وكان الاستماع إلى الدرس مباحاً لكل من يرغب في التعلم ، يقول الحجوي - في كتابه الفكر السامي - : " تحليق الناس لدرس العلم في المسجد: إن إلقاء المسائل بحيث يكون واحد يلقي والناس يسمعون على هيئة الدرس قد بدأ في عصر الصحابة، فقد حلّق أبو هريرة وعبد الله بن عباس وغيرهما" (7) ،ولا ريب أن التدريس في القرون الأولى لم يكن يتناول بالبحث مؤلفات معينة، ولم يكن كذلك على ترتيب خاص في كيفية الإقراء.

المطلب الثاني ـ توسع التعليم ليشمل المساجد والكتاتيب والزوايا:

كانت الكتاتيب والمساجد والزوايا هي النواة الأولى للتعليم وكانت منتشرة في القـــــرى والأمصار على طول العالم الإسلامي وعرضه ، وكانت الدروس العلمية تلقى في هذه الأماكن منذ الصباح وحتى وقت متأخر من النهار، يتناوب المعلمون والأساتذة على التدريس فيها أو يأخذ أحدهم ركنا في الكتّاب أو المسجد ويتحلق حوله الطلبة ، كل حسب رغبته في نوع العلم الذي يقدمه على غيره .فمنهم من يجلس لتلقي علوم اللغة والنحو ، ومنهم من يجلس لعلوم الفقه وأصوله ، والحديث وعلومه ، وغير ذلك ، وقد أدت تلك الكتاتيب والمساجد مهمتها على أكمل وجه فتخرّج منها الفقهاء والمحدثون، والأصوليون والمتكلمون وغيرهم ، فلم تكن مكان عبادة فحسب ؛ بل كانت

مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة وعلوم الشريعة واللغة وفروع العلوم المختلفة.

ومما أسهم في إنجاح العملية التعليمية في هذه المرحلة ، تميزها بالإخلاص في العطاء ، والتفاني من قبل المعلمين والمربين الذين بذلوا كل وقتهم من أول النهار إلى آخره لطلبة العلم ، والجدّ والاجتهاد اللذين تميز بهما طلاب العلم في ذلك الزمان ، وحرية الطالب في اختيار ما يتعلمه ، والمعلم الذي يتلقى عنه العلم، والدعم المادي الذي يقدمه الأغنياء والمحسنون لطلاب العلم عن طريق الأوقاف التي يوقفونها ، لتصرف غلاتها ، ونتاجها على طلبة العلم ، وتوفير الإقامة والأكل والملبس والتعليم المجاني لإغناء الطلاب عن ذل السؤال ، ولينفقوا كل جهدهم في التحصيل والتلقي، وعصمتهم من ذل السؤال وتكفف الناس، وإشعارهم بكرامة وعزة طالب العلم[8].

المطلب الثالث ـ ظهور المدارس العالية أو ما يعرف بالجامعات:

في نهاية القرن الرابع وبدايات القرن الخامس الهجري عرفت المدارس المنتظمة ذات الصبغة الأكاديمية واللوائح والنظم العلمية، تقدّم مناهج معدة، وتمنح شهادات وإجازات لطلابها إلى جانب الكتاتيب والمساجد، واتخذت هذه المدارس طابعين إحداهما مدارس عامة تقدم صنوف العلوم والمعرفة لطلابها ، والأخرى تخصصية يقتصر التعليم فيها - بالدرجة الأولى -على نوع واحد من العلوم وغالبا ما تكون علوم الطب والصحة العامة فهي إذا على نوعين :

1 - المدارس المتعددة التخصصات .

2 - المدارس التخصصية .

وأول من بنى المدارس الحسن بن عليّ بن إسحاق بن العبّاس ، الوزير أبو عليّ الطُّوسيّ، الملقَّب بنظام المُلْك ([9]) , قال الذهبي في تاريخ الإسلام: " وهو أوّل مَن بنى المدارس في الإسلام، بنى نِظاميّة بغداد ، ونِظاميّة نَيْسابور، ونِظاميّة طُوس، ونِظاميّة إصبهان " ([10]) ، وقال ابن الجـــوزي : " وأما النظام فإن سيرته بهرت العقول جودا وكرما وحشمة وإحياء لمعالم الدين ، فبنى المدارس، ووقف عليها الوقوف ، ونعش العلم وأهله، وعمر الحرمين، وعمر دور الكتب، وابتاع الكتب فكانت سوق العلم في أيامه قائمة،)([11]) ، وتميزت المدارس عن الكتاتيب والزوايا بالانضباط واللوائح التي تحكم المدرس والطالب ، وتحديد ما يتلقى فيها من علوم.

وسأعرض في هذا المبحث نماذج من المدارس أو بالأحـــرى الجامعات التي أسست مبكرًا في الحضارة الإسلامية ، مبينا ما هو منها ضمن الجامعات المتعددة التخصصات, وما هو منها متخصص في نوع من العلوم .

1- المدارس المتعددة التخصصـــات : أنشأ العلماء المسلمون مدارس عالية تضم تخصصات متعددة بين علوم للشريعة واللغة والمنطق والطب والفلك والرياضيات وغير ذلك من التخصصات .ومن هذا النوع:

المدرســـة النظاميـــة ببغداد : مدرسة عظيمة أنشئت ببغداد عام (457 هـــ)، وهي من أشهر ما بني في القديم[12] ، قال ابن كثير : " وَفِي ذِي الْحِجَّةِ مِنْهَا شُرِعَ فِي بِنَاءِ الْمَدْرَسَةِ النِّظَامِيَّةِ بِبَغْدَادَ، وَنُقِضَ لِأَجْلِهَا دَوْرٌ كَثِيرَةٌ مِنْ مَشْرِعَةِ الزَّوَايَا وَبَابِ الْبَصْرَةِ" [13]، مدرسة أشبه ما تكون بالجامعة في عصرنا الحاضر كان يدرّس بها الفقه على المذاهب الأربعة، وعلم الأصول والكلام والمناظرات، وقد درّس بها عدد جم من أعظم علماء الإسلام منهم على سبيل المثال لا الحصر:

الإمام الأصولي أبو القاسم الدبوسي. قال ابن كثير : " عَلِيُّ بْنُ أَبِي يَعْلَى بْنِ زَيْدٍ أَبُو الْقَاسِمِ الدَّبُوسِيُّ مُدَرِّسُ النِّظَامِيَّةِ بَعْدَ الْمُتَوَلِّي سَمِعَ شَيْئًا مِنَ الْحَدِيثِ وَكَانَ فَقِيهًا مَاهِرًا وَجَدَلِيًّا بَاهِرًا.)[14]

الإمام ابن الصبـــــاغ : قال ابن كثير : " ابْنُ الصَّبَّاغِ صَاحِبُ " الشَّامِلِ " عَبْدُ السَّيِّدِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ الْإِمَامُ أَبُو نَصْرِ بْنُ الصَّبَّاغِ وُلِدَ سَنَةَ أَرْبَعِمِائَةٍ ، وَتَفَقَّه وصَنَّفَ الْمُصَنَّفَاتِ الْمُفِيدَةَ ; مِنْهَا كِتَابُ " الشَّامِلِ " فِي الْمَذْهَبِ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ دَرَّسَ بِالنِّظَامِيَّةِ" [15] .

الإمام أَبُو حَامِدٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْغَزَّالِيُّ :ـ قال ابن كثير في البداية والنهاية : (وَفِي جُمَادَى الْأُولَى قَدِمَ الشَّيْخُ أَبُو حَامِدٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْغَزَّالِيُّ الطُّوسِيُّ مِنْ أَصْبَهَانَ إِلَى بَغْدَادَ عَلَى تَدْرِيسِ النِّظَامِيَّةِ بِهَا)[16] .

الفقيه الشافعي أبو إسحاق الشيرازي مصنف المهذب: قال ابن كثير : " عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْمَأْمُونِ بْنِ عَلِيٍّ أَبُو سَعْدٍ الْمُتَوَلِّي مُصَنِّفُ " التَّتِمَّةِ " وَمُدَرِّسُ النِّظَامِيَّةِ بَعْدَ أَبِي إِسْحَاقَ الشِّيرَازِيِّ، وكان فصيحا بليغا ماهراً بعلوم كثيرة)[17] .

المدرسة المستنصرية ببغداد: أنشأها الخليفة المستنصر بالله المتوفى (سنة 640 هـــ)- ووقفها على المذاهب الأربعة، وقد بدأ بتشييدها سنة 625 هـ وانتهى من بنائها سنة 631 هـ يقول الذهبي في تاريخ الإسلام : (في سنة إحدى وثلاثين وستمائة)تكاملَ بناءُ

المدرسة المستنصريّة ببغداد، التي لم تُبن مدرسة في الدنيا مثلها، ونُقِلَ إليها الكتبُ وهي مائة وستون حِمْلًا، وعدّة فقهائها مائتان وثمانية وأربعون فقيهًا من المذاهب الأربعة، وأربعةٌ مدرّسون، وشيخُ حديث ، وشيخ نحوٍ، وشيخُ طبّ، وشيخُ فرائض.)([18]) ، ويقول الذهبي في موضع آخر : (بَنَى المستنصرُ علَى دِجْلةَ من الجانب الشرقيّ ممّا يلي دارَ الخلافةِ مدرسةً ما بُنِيَ عَلَى وجه الأرضِ أحسنُ منها ولا أكثُر وقفًا، وهي بأربعة مُدرّسين عَلَى المذاهبِ الأربعة. وعمل فيها بيمارستاناً كبيرًا، ورتَّبَ فيها مَطْبَخًا للفُقهاءِ، ومزملة للماءِ الباردِ ، ورَتَّبَ لبيوتِ الفقهاءِ الحُصُرَ، والبُسُطَ، والفَحْمَ، والأطعمةَ، والوَرَقَ، والحِبْرَ، والزَّيتَ، وغيرَ ذَلِكَ ، وللفقيه - بعد ذَلِكَ - فِي الشهر ديناران، ورَتَّبَ لهم حَمَّامًا، ورَتَّبَ لهمِ بالحمَّام قَومَةً، وهذا ما سُبق إِلَيْهِ ، وللمدرسةِ شبابيك عَلَى دِجْلة ، وللخليفةِ منظرةٌ مطلةٌ عَلَى المدرسةِ يَحضُر فيها الخليفةُ، ويَسَـــمعُ الدّرسَ([19]) ، ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ، ولم يبن مدرسة قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيها، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد. ووقف فيها كتبا نفيسة ليس في الدنيا لها نظير، فكانت هذه المدرسة جمالا لبغداد وسائر البلاد)([20]) .

2 ـ المدارس التخصصيـــــــة : المراد بالمدارس التخصصية : تلك المدراس التي اقتصر التدريس فيها على نوع واحد من العلوم، وقد ذكرت لنا كتب التاريخ نماذج كثيرة لهذا النوع من المدارس ، ولضيق المقام أقتصر على ذكر مدرستين تعدان أنموذجا للمدارس التخصصية لدراسة الطب ، وتم ربطها بالمستشفيات التي يطلق عليها اليوم بالمستشفيات الجامعية ، وقد يعتقد الكثيرون أن ما يعرف بالمستشفى الجامعي الذي يُعني بربط الجامعات الطبية بالمستشفيات التعليمية منهـــج وضعه الغرب، وطريقة في التعليم من نتاج الحضارة الغربية ، وهذا خطأ كبير وجهل عظيم بنماذج التعليم عند المسلمين، فهم أول من ربط التعليم الطبي بالمستشفيات ، وتقديم الخدمات التعليمية العملية لطلاب الطب، ولنزلاء المستشفيات، وهذا بُرهان ساطع على نبوغ المسلمين وتفوقهم على سائر الحضارات السائدة في زمنهم ، بل مازال رافدا للحضارة في العصور الحديثة ، وتروي لنا كتب التاريخ الإسلامي أمثلة ساطعة على إنشاء كليات طبية متخصصة في تقديم العلوم الطبية، وتكون أحيانا قسما من أقسام المدارس الكبيرة

التي يمكن أن يطلق عليها بمصطلح زماننا اسم الجامعات المتعددة التخصصات، وبعضها ما يمكن أن نطلق عليه بمصلح اليوم الجامعات الطبية التي يقتصر التعليم فيها على العلوم الطبية، وكثيرا ما تربط هذه المدارس الطبية بالمستشفيات، أو ما يطلق عليه وقتها بالمارستان وهو مصطلح يرادف لفظ المستشفى في زماننا ، وهذا المنهج لا شك فريد في نوعه وتطور يبهر العقول. ومن هذه المدارس المتخصصة:

المدرســـــــــة الدخواريـــــــــة [21] بنى هذه المدرسة الطبية وأوقفها المهذب الدخـــــــوار عبد الرحيم بن علي حامد الدمشقي شيخ الأطباء أنشاها بالصاغة العتيقة بدمشق ، وانتهت إليه معرفة الطب ، وصنف فيه التصانيف ، وحظي عند الملوك ، وصار أطباء البلد تلامذته حتى إن من جملة أصحابه المهذب الدخوار.

وقال ابن كثير : " في سنة ثمان وعشرين المذكورة: الدخوار الطبيب واقف الدخوارية مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار شيخ الأطباء بدمشق وقد وقف داره بدرب العميد بالقرب من الصاغة العتيقة على الأطباء بدمشق مدرسة لهم" ، وقد انتدب للتدريس في الدخوارية ثلة من مشاهير الأطباء منهم : " الجمال المحقق أحمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقي، اشتغل بالفقه على مذهب الشافعي، وبرع فيه وأفتى وأعاد، وكان فاضلا في الطب، وقد ولي مشيخة الدخوارية لتقدمه في صناعة الطب على غيره، وعاد المرضى بالمارستان النوري على قاعدة الأطباء، وكان مدرسا للشافعية بالفرخشانية ، ومعيدا بعدة مدارس، وكان جيد الذهن مشاركا في فنون كثيرة سامحه الله." ([22])

المدرســـــــــة الدنيسريـــــــــة: مدرسة متخصصة في علوم الطب مرتبطة بالبيمارستان النوري (المستشفى) أنشأها عماد الدين محمد بن العباس الدنيسري الطبيب الماهر، والحاذق الشاعر، خدم الأكابر والوزراء، له مصنفات في الطب" ([23]) .

المبحث الثاني ـ خصائص المناهج التعليمية والتربوية عند المسلمين:

مما لا شك فيه أن هذا الميراث العظيم للحضارة الإسلامية الذي مكّن الأمة من تصدّر وريادة العالم لأكثر من ألف عام ، وهذه الكنوز العلمية والمعرفية في فنون العلوم المختلفة سواء أكانت في علوم الشريعة واللغة والأدب وعلوم الفلسفة أم في علوم الطبيعة والفلك والكيمياء والفيزياء، وعلوم الطب والتشريح مما تركته الحضارة العربية الإسلامية لأكبر برهان ، وأنصع دليل على أن الوسائل التعليمية والتربوية التي كانت سائدة في ذلك الزمان كانت ناجعة ـ وممكّنة لهذا التفوق مما جعل تلك المناهج التعليمية

تخرج لنا قمما من العلماء، ونوابغ من البحّاث، وسيلا من طلاب العلم ملكوا ناصية العلوم، وتمكنوا من وسائل البحث والاســـتقراء والاستنباط ، تلك المناهج أخرجت أجيالا من العلماء ما زال الكثير منهم روادا لتلك العلوم فنحن على مستوى الأمة العربية المسلمة لن ننسى من أبدعـــوا في مجال الفقه كأبي حنيفة ومالك، والشافعي ، وأحمد ، والليث بن سعد ، ومحمد بن الحسن، وابن القاسم ، والنووي، وغيرهم من الفقهاء الذين لا يمكن حصرهم عددًا ، وفي مجال علوم الحديث من ينسى البخاري ، ومسلم ، والبيهقي ، والترمذي، والدارقطني ويحيى بن معين وغيرهم المآت ، وفي مجال اللغة والنحو من لا يعرف سيبويه والخليل ، والكسائي والمبرد والجاحظ ، وعلى مستوى العلوم التطبيقية لا يمكن للبشريـــة جمعاء أن تنكر فضائل الحسن بن الهيثم ، وابن النفيس والفارابي والكندي ،ممن سطروا أسماءهم في دواوين الخالدين من العلماء ، وما كان لهذه الأعلام أن تبـــرز لولا تلك الوسائل التعليمية الناجعة والمناهج التربوية المسدّدة .

وهـذه المناهج التعليمية الرائدة أنتجت علماء لهم همم كالجبال ، وإرادة تقهر الصعاب ، فشمّروا على سواعد الجد، ووصلوا الليل بالنهار في المطالعة والبحث حتى كان بعضهم يصلي الصبح بوضوء العشاء، يغوصون في اكتشاف المعارف والعلوم.

وهذه المناهج التربوية وإن لم تكن محددة في كتب ومناهـــج ، أو تدّرس في معاهد وجامعات فقد اصطلح على الأخذ بها من كانوا يتولون العملية التعليمية.

إن النتاج العظيم من العلماء النابغين الذين قدمتهم الحضارة الإسلامية في شتى أنواع العلوم والمعارف لابد وأن يكون وراءه مناهج تربوية وتعليمية مبنية على أسس متينة ، تتدرج بالمتعلم منذ نشأته الأولى وحتى بلوغه سن النضج والإبداع ، آخذة بما يناسب كل مرحلة عمرية من التحصيل العلمي ، وترك لنا ابن حزم الأندلسي صورا من المناهج التعليمية الأندلسية التي كان يتلقاها المتعلم منذ نشأته الأولى : (فالطفل يبدأ بالدراسة في سن الخامسة "عندما يفهم السؤال ويستطيع الجواب" ، ويبدأ بتعلم الخط من الحروف وتأليف الكلمات والقراءة في القرآن وكل كتاب بالعربية، ويتعلم طريقة الحديث والنطق، ثم يدرس العدد والهندسة والمنطق والطبيعة والتشريح والتاريخ قديمه وحديثـــه ، والفلسفة ضرورية ؛ لأنها تبحث في قضايا الخلق ووجود الله والوحدانية والنبوة ، وعلى رأس كل هذه علوم الشريعة، وطلب كل هذه العلوم لذة في ذاته، بالإضافة إلى مكاسبها العقلية والمادية، ولا تتوفر شروط هذه المعارف إلا في مدينة عالمية، ويشمل هذا البرنامج علوم الدين واللغة والتاريخ والفلسفة والفلك والرياضيات والطب ، والظاهر

أن المرحلة الأولى تنتهي بحفظ القرآن وبعض كتب النحو واللغة، وبعض دواوين الشعراء.)([24])

وقد رصد بعض علماء المسلمين تلك المناهج بعد أن عرفوا نجاعتها وفضلها بما تحقق من نتائجها فصاغوها في كتبهم ، ونبّهوا إليها في مصنفاتهم .

ويمكن أن نلخّص أهم مميزات وخصائص المناهج في تربية الطفل وتعليمه وتأسيسه عند المسلمين في المطالب التالية:

المطلب الأول ـ الترقي والتدرج بالقدرات العقلية للمتعلم :

أولت المناهج التربوية والتعليمية الإسلامية التدرج بالطفل في تلقيه العلمي من السهل الميسور والبسيط غير المركب إلى ما هو أكثر صعوبة وتركيبا، ومن الجلي الواضح إلى ما هو أخفى وأدق حتى تنضج ملكات الطفل ومواهبه ، ويتم التدرج به بما يتلاءم مع سنه وعقله فلا يلقى إليه من التعليم ما يشق عليه ويصعب على فهمه، ولا يتناسب مع عقله فإن ذلك يكون سببا لفشله وشعوره بالعجز والإحباط مما يدعوه إلى التهرب والنفور من التعلم ، يقول الغزالي في كيفية التنقل بالمتعلم من مرحلة إلى أخرى: " وأن يقتصر المعلم بالمتعلمين على قدر أفهامهم ، فلا يرقّيهم إلى الدقيق من الجلي ، وإلى الخفي من الظاهر هجوما ، ولكن على قدر الاستعداد اقتداء بمعلم البشر كافة ومرشدهم حيث عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا- ، أَنَّهَا قَالَتْ: **أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ نُنَزِّلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ"**([25]) . وقوله – صلى الله عليه وسلم - **" مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً "**([26]) . وقال علي- رضي الله عنه- : **" حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ"**([27]) ، ولما قال- تعالى - : **(فَإِنْ آنَسْتُم مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُم)** ([28]) نبّـــــه على أن من بلغ رشـــــده في العلم ، ينبغي أن يبث إليه حقائق العلوم ، ويرقى من الجلي الظاهر، إلى الدقيق الخفي الباطن، فليس الظلم في منع المستحق، بأقل من الظلم في إعطاء غير المستحق.) ([29])

ويشير ابن خلدون إلى أهمية التدرج في التعليم لنجاح العملية التعليمية فيدعو إلى بسط الكل قبل تحليل أجزائه فإذا أدرك المتعلمون إطار الموضوع وأحاطوا بجمله ، يؤخذ بهم في تدرج متسلسل ومتماسك وإلى شـــــرح الأجزاء أو التفاصيل ، ثم يصل المعلم في النهاية مع طلابه إلى إدراك القوانين العامة ، التي تحكم هذه الأجزاء حيث يكون الاستنتاج والاستقصاء([30])

المطلب الثاني ـ منهج التفاعل والتحاور والمناظرة في التعليم :

من أسوء المناهج التعليمية التي تقدم للمتعلم اعتمادها على التلقين والحفظ وحشو العقل دون تفاعل بين المعلم والمتلقي ، وهذا المنهج من شأنه أن يغل العقل ويسلبه القدرة على الاستنباط والتحليل، ويجعل الطالب مجرد حافظ للنصوص مردد لما يتلقاه دون أن يتشرب معناه ويحلل دلائله ويغوص في ثناياه، ولذلك ذم العلماء المسلمون هذا المنهج ، ولقد تنبّه المعلمون والمربون المسلمون إلى عقم هذا المنهج لذلك آثروا التعليم القائم على التفاعل والمناظرة بين الطلاب فيما بينهم وبين الطلاب ومعلميهم.

وإلى أهمية التعليم عن طريق المحاورة والمناظرة والمناقشة الإيجابية وأهمية ذلك في ترسيخ المعارف التي يتدارسها المتعلمون ، يقول ابن خلدون : (أيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية)([31]) .

المطلب الثالث ـ الجمع بين التعلم واللعب في تعليم الأطفال:

فطن المربون والمعلمون المسلمون لنوازع الطفولة من حبّ اللعب والميل للحركة وعدم الصبر على الاستقرار في مكان، وأدركوا سرعة السآمة والملل الذي جبل عليه الأطفال حين يؤخذون على التعليم أخذا، ويجبرون عليهم قهرا، مما يشتت تفكيرهم ويصرف تركيزهم ،فجمعوا للمتعلمين النشء بين التعليم واللعب، وزاوجوا بين إيصال المعرفة له وبين السماح للأطفال بتخلل ذلك بأوقات يلهوا فيها الطفل ويلعب.

وهذا المنهج يعد من أهم المناهج التي تقوي قدرات الطفل وتنمي إمكانياته الفكرية والعقلية والجسدية ،لا سيما في السنوات الأولى من تلقيه للتعليم ، يقول الغزالي في أهمية الربط بين لعب الطفل وتعلمه: " ينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا ،يستريح إليه من تعب المكتب ، بحيث لا يتعب من اللعب فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه بالعلم يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغّص عليه العيش حتى يطلب منه الحيلة في الخلاص منه رأسا)([32]) ، وقد نبه ابن مسكويه إلى أهمية الجمع بين الرياضة والتعليم .فيقول : (ينبغي أن يؤذن للطفل في بعض الأوقات أن يلعب لعبا جميلا ليستريح إليه من تعب الأدب ، ولا يكون في لعبه ألم ولا تعب شديد([33]) ،فالرياضة تحفظ الصحة ، وتنفض الكسل ،وتطرد البلادة ، وتبعث النشاط وتزكي النفس) ([34]).

المطلب الرابع ـ البعد عن التعنيف والعقاب:

إن من أكبر الأخطاء السائدة في التعليم في بلداننا استخدام أسلوب العقاب والمبالغة في القســـوة على الطّـــلاب باستخدام أسلوب العقاب البدني أو المعنوي ، مما يدفع الطالب

إلى كراهية التعلم ومحاولة الانســـــلاخ منه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، كما أهمل التعليم في دول العالم الإسلامي في العصور المتأخرة الربط بين التعلم والتنشئة على القيم والمثل الفاضلة، والتربية المرتكزة على تشرب النظام، واحترام الوقت والربط بين ما يتلقاه من قيم ومثل وبين سلوكه في حياته ومجتمعه، فنرى الجامعات تخرج مآت الآلاف من الطلاب ممن تحصلوا على أعلى الشهادات العلمية لكن سلوكهم وأخلاقهم في المجتمع لا يكاد يختلف عن غيرهم ممن لم يتلق العلم ولا درس في مراحل التعليم المختلفة ، وهذا ما لم يسلكه المربون في التعليم عند أسلافنا فكان اهتمامهم بتنشئة المتعلم علميا وخلقيا وأدبيا لا يختلف عن تنشئته علميا، واتبعوا في ذلك أسلوب الترغيب والثواب، والبعد عن العقاب والتعنيف والتشديد على المتعلم .

وأولت المناهج التربوية والتعليمية الإسلامية عناية كبيرة بضرورة أخذ المتعلم بالنظام والتزام الطاعة ، وتقدير الواجب ، وسلكت في سبيل تحقيق هذا الهدف طريق السياسة واللين والابتعاد عن القسوة والشدة ، يقول الفيلسوف ابن سينا في تأكيد هذ المبدأ : " إذا اقتضت الضرورة الالتجاء إلى العقاب فإنه ينبغي مراعاة منتهى اليقظة والحذر....فلا يؤخذ الوليد أولا بالعنف وإنما بالتلطف ، ثم تخرج الرغبة بالرهبة ، وتارة يستخدم العبوس أو ما يستدعيه التأنيب ، وتارة يكون المديح والتشجيع ، أجدى من التأنيب ، وذلك وفق كل حالة خاصة)([35]) .

ويقول ابن خلدون : " إن إرهاق الجسد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين سطا به القهر ، وضيق على النفس في انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعا إلى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلّمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقا وصار عيالا على غيره في ذلك ، فينبغي للمعلم في تعليمه ألا يستبد عليهم في التأديب " ([36]) ، واعتبر المسلمون أن إيقاع العقوبة المدرسية بالمتعلم تكون حيث لا توجد وسيلة أخرى محلها ، ومن ثم ارتكزت منهجية التربية الإسلامية على مبدأ ضرورة اعتبار العملية التربوية مشوقة متلائمة مع نضج المتعلم ، ومتساوقة مع ميوله ، ومحققة لرغباته وحاجياته الأساسية ، ومرتبطة ببيئته وثقافته.

المطلب الخامس ـ استخدام منهج التعريض والتلميح في التوجيه دون التصريـــــح:

تناولنا في المطلب السابق ذم المعلمين والمربين لأسلوب التعنيف والعقاب والتأديب

العنيف للطالب، وعرفنا ما يترتب على ذلك من نفوره من مواصلة التعلم وانقباض نفسه من التحصيل، وربما أدى ذلك لتركه دراسته وتعليمه ، لكن قد يقع من المتلقي ما يستوجب تحذيره وتنبيهه على تقصير وقع منه، أو خطأ بدر عنه وتعين تنبيهه لذلك حتى لا يعيد ما وقع فيه ثانية، لذلك نبه العلماء إلى ضرورة علاج ذلك التفريط أو الخطأ أو التقصير من الطالب بأسلوب التعريض والتقويم غير المباشر- وقد يكون ذلك أبلغ من التعنيف والتشدد عليه، ويكون له صدى فعّال على نفس الطالب وأدعى لتحريك الحياء في نفسه وعدم العود لخطئه ، يقـــول الغزالـــي : " ينبغي أن ينهي عما يجب النهي عنه، بالتعريض لا بالتصريح، لأن التعريض يؤثر في الزجر، والتصريح بالزجر مما يغري بالمنهى عنه. وقد قيل: رب تعريض أبلغ من تصريح. وذلك أن النفوس الفاضلة لميلها إلى الاستنباط والتنبه للخفيات، تميل إلى التعريض شغفاً باستخراج معناه بالفكر. والتعريض لا يهتك حجاب الهيبة، والتصريح يرفعه بالكلية، فيستفيد المنهي جراءة على المخالفة إذا اضطر إلى المخالفة مرة أخـــرى" (37) .

المطلب السادس ـ المنهجية القائمة على التحليل والتجربة والاستنباط :

تنبه العلماء المسلمون إلى أهمية التجربة والتحليل في دراسة العلوم ، فسبقوا بذلك علماء الغرب بقرون، واهتمامهم بهذا المنهج قادهم إلى أعظم الاكتشافات العلمية في مختلف العلوم التطبيقية : في الفلك والطب والكيمياء والرياضيات وغير ذلك، وهذا المنهج الذي سلكه المربون والمعلمون في تعليم الطلاب التحليل وعلل الأحكام أرساه خير الأنام - صلى الله عليه وسلم - ، فمن معالم تعليمه المنهج العلمي التطبيقي : أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يعوّدهـــم على معرفة العلة ومناط الحكم والاستنباط ، ولما سئل - صلى الله عليه وسلم - عن شراء التمر بالرطب ، قال - صلى الله عليه وسلم - : " **أَيَنْقُصُ الرُّطَبُ إِذَا يَبِسَ؟" قَالُـــوا : نَعَمْ ، فَنَهَاهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ ذَلِكَ** (38) ، وقد كان معلوماً له - صلى الله عليه وسلم - ولغيره أن الرطب ينقص إذا يبس، لكنه أراد تعليمهم مناط الحكم وعلته، وحين نهاهم عن بيع الثمرة قبل بدوّ صلاحها قال لهم : " **أَرَأَيْتَ إِنْ مَنَعَ اللَّهُ الثَّمَرَةَ، فَبِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيـــــه؟** " (39) ، وكان يعودهم تعلم الاستنباط لا مجرد التلقي والتلقين فقد سأل - صلى الله عليه وسلم - أصحابه يوماً، فقال: " **إِنَّ مِنَ الشَّـــجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْـــقُطُ وَرَقُهَا، وَهِيَ مَثَلُ المُسْـــلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَادِيَةِ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَاسْتَحْيَيْتُ، فَقَالُوا: يَا رَسُـــولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنَا بِهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ**

اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " هِيَ النَّخْلَةُ " ([40]) ففي هذه النصوص علَّم - صلى الله عليه وسلم - أصحابه علةَ الحكم ومناطه، ولم يقتصر على الحكم وحده.

المطلب السابع ـ الرفق والحنو على الطلاب والتلطف معهم:

من مناهج التعليم عند المسلمين الحنو على طلاب العلم والتلطف معهم ، وخفض الجناح لهم لا سيما من معلميهم ومربيهم، ليعلموا ويتعلموا التواضع من ذوي الفضل والعلم فيتمثل ذلك ويتشرّبه سلوكا في حياته، ويبتعد عن الغلظة والفضاضة .

قال أبو حامد الغزالي : (فأول وظائف المعلم أن يجري المتعلم منه مجرى بنيه، كما قال- صلى الله عليه وسلم - : **" إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ "** ([41]) . وليعتقد المتعلم أن حق المعلم أكبر من حق الأب، فإنه سبب حياته الباقية، والأب سبب حياته الفانية، وكما أن من حق بني الأب الواحد أن يتحابّوا ولا يتباغضوا، فكذلك حق بني المعلم، بل حق بني الدين الواحد. لقوله - تعالى- : **(إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)** ([42]) ، ويدخلون تحت قوله: **(الأَخِلاَّءُ يَومَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ إلا المتّقِين)**([43])([44]) .

المبحث الثالث ـ تهيئة الوسائل المناسبة لنجاح العملية التعليمية:

لا يمكن للمنهج التعليمي أن يؤتي أكله ما لم تصاحبه وسائل تمكن من إيصال ما يبتغيّ المربون تزويد الطالب به من علوم ومعارف .

المطلب الأول ـ توفير السكن الطلابي لكل من له علاقة بالعملية التعليمية:

قد توجد مدارس في زمننا هذا توفر لطلابها الإقامة أما لغيرهم ممن يقومون على التعليم من أساتذة وموظفين ومشرفين فهذا مالم نجده إلا في المدارس عند المسلمين إبان نهضتهم ، يقول ابن جماعة في كتابه تذكرة السامع في آداب العالم والمتعلم : (سمح للشيوخ الأجلة العلماء الإقامة في المدارس والزوايا ليلا ونهارا، والمتعاهدين على أحوال الطلبة والمعيدين والمبتدئين جميعا، والملاحظين أداب المدارس العلية والمتوسطة، والمكاتب الصغيرة، والمعاونين للآخرين من سكان المدرسة خاصة والمتعلمين عامة في العلم والأدب، والخلق وتزكية النفس، والمحافظين على خدم المدرسة والمهتمين بها، والناظرين إلى الخارجين والداخلين منها([45]) ، ولم تكن الغاية مجرد توفير السكن لمن ذكر بل وضعت قواعد تنظمه في تلك المدارس الداخلية بشكل دقيق : (بحيث تراعي حالة السكن الصحية، واختيار المكان الملائم)([46]) ، ولقد

توافرت في مساكن المدارس (أسباب الراحة والصحة حتى ينصرف الطالب إلى حضور حلقات الدروس والمطالعة في المكتبة ، وإعداد الدروس في غرفته)[47] .

المطلب الثاني ـ توفير الرعاية الصحية للطلاب والقائمين على المدارس :

تُقدم المدارس في الدولة إبان الحضارة الإسلامية للطلاب والموظفين والمشرفين الرعاية الصحية والنفسية، من الأمثلة على تقديم الرعاية الصحية لمن ذكر: أمر السلطان الحسن بن قلاوون(أن يرتّب الناظر في المدرسة طبيبين كل منهما يحضر في كل يوم إلى المدرسة يداوي من يحتاج المداواة من أرباب الوظائف والطلبة المقيمين بالأماكن ، ومن يحضر إليها من الطلبة ، ويتوجه له الطبيب في مكان إقامته ، ولا يكلف المريض الحضور إلى الطبيب)[48] .

المطلب الثالث ـ توفير سبل الراحة والرفاهية للطلاب:

إن الإنسان ليعجب ولا يبلغ العجب منتهاه من الاهتمام بطلاب العلم والعناية بهم والوقوف على احتياجاتهم الضرورية وحتى الكمالية، وقد مر بنا قبل قليل مقدار الرعاية والاهتمام بالطلاب من قبل الدولة والقائمين على التعليم من توفير السكن الملائم والرعاية الصحية والنفسية، والمتابعة لسير دراستهم، ووضع القيمين والمتابعين لحضورهم وانصرافهم، لكن أن يقدم للطلاب في مكان سكناهم في المدارس التي يدرسون بها الطعام اللائق بهم بل تقدم لهم حتى الفواكه والحلوى فهذا دليل على غاية الاهتمام والعناية والرعاية بطلبة العلم ، يقول ابن كثير في البداية والنهاية في وصف عناية الدولة والموسرين من أهل البر والإحسان بطلاب العلم : (وقدّر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد)[49] .

المطلب الرابع ـ توفير المكتبة المدرسية وفتح أبوابها للجميع :

قل أن تخلو مدرسة من المدارس في الدولة الإسلامية التي انتشرت في العالم الإسلامي من مكتبة ازدانت بمختلف الكتب والمراجع التي لا غنى للطلاب عنها . يتحدث ابن الفوطي عن غنى المكتبات المدرسية فيصف مكتبة المدرسة المستنصرية يوم تكامل بنيانها بأن نقل إليها : (من الربعات الشريفة ، والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ما حمله مائة وستون جملا ، جعلت في خزانة الكتب)[50] واحتوت مكتبة دار الحكمة بالقاهرة على سبيل المثال على أقسام تقدم الخدمات لروادها مجانا دون مقابل ، وكان مما احتوت عليه قسم نسخ الكتب ، نسخت ملايين الكتب التي جلدت وزخرفت ، ووضعت بين يدي القراء ، بل اجتهد هؤلاء النساخ في توفير العديد من

النسخ للكتاب الواحد، ولقد ضمت مكتبة القاهرة ألفا ومائتي نسخة من تاريخ الطبري ،ومائة وخمسين نسخة مخطوطة من كتاب الجمهرة لابن دريد، وحوت المكتبة أقساما للقرآن وعلومه ، وللفلك والطب ، والنحو وعلوم اللغة المختلفة .

وكانت من عجائب الدنيا، ويقال أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة ، ودون شك تعتبر أبرز نموذج للمكتبات الوقفية ، وأعطت ثماراً جناها أهل العلم من مختلف الطبقات، ولم يستغن عن استخدامها العلماء والطلاب، وكافة أفراد المجتمع لغناها ووفرة ما كانت تضمه من كتب، كما أن دار الحكمة لم يكن الاسم الوحيد الذي تعرف به فقد ذكرت مراراً باسم " دار العلم" و " ودار الكتب"([51])

الخاتمـــــــــــة:

مما لا شك فيه أن هذا الميراث العظيم للحضارة الإسلامية الذي مكّن الأمة من تصدّر وريادة العالم لأكثر من ألف عام، وهذه الكنوز العلمية والمعرفية فـــي فنون العلوم المختلفة سواء أكانت في علوم الشريعة واللغة والأدب وعلوم الفلسفة أم في علوم الطبيعة والفلك والكيمياء والفيزياء، وعلوم الطب والتشريح مما تركته الحضارة العربية الإسلامية لأكبر برهان، وأنصع دليل على أن الوسائل التعليمية والتربوية التي كانت سائدة في ذلك الزمان كانت ناجعة ـ وممكّنة لهذا التفوق ، ولابد لنا إذا أردنا إحياء أمجادنا ،وتصدر الأمم والتخلص من التخلف والجهل الذي التصق بالأمة الإسلامية لابد لنا من إعادة النظر في المناهج التعليمية التي تقدم للطلاب، وإعداد مناهج علمية تراعي حاجات الفرد الدينية والدنيوية، وربط التعليم بالحياة اليومية التي يعيشها الفرد، وألا يكون التعليم بمعزل عن تطلعات الأمة وتحقيق عزتها ومنعتها ، ولا بد لنا من إيجاد مناهج تعليمية حديثة ومتطورة مع البناء على ما كان قائما عليه التعليم زمن الحضارة الإسلامية كما تبين من خلال هذا البحث.

الهوامـــــــش :

القـــــرآن الكريم

1 - سورة القصص، الآية : 77.

2 - صحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: النهي عن المسألة، 718/2 رقم الحديث 1037.

3 - إحياء علوم الدين : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، الناشـــــر: دار المعرفة ، بيروت- لبنان (د- ط).16/1.

4 - التعليم في بلاد المسلمين: عبد الفتاح بن سليمان عشماوي: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة الطبعة: الأولى .د.ت.، 26/1

5- سبق تخريجه.

6 - سورة النحل، الآية :89.

7 - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي .محمد بن الحسن بن العربيّ بن محمد الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي (المتوفى: 1376هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان. الطبعة: الأولى - 1995م .، 1/ 287.

8- ينظـــــــــــر : من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، الناشر: دار الورق للنشـــر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط 1، 1420 -1999.، ص 205 -206 -207 -209 -214.

9- نِظَامُ الْمُلْكِ الْوَزِيرُ هُوَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ الْعَبَّاسِ، أَبُو عَلِيٍّ الْوَزِيرُ نِظَامُ الْمُلْكِ وَزَرَ لِلْمَلِكِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ وَوَلَدِهِ مَلِكْشَاهْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، كَانَ مِنْ خِيَارِ الْوُزَرَاءِ وُلِدَ بِطُوسَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَبَنَى الْمَدَارِسَ النِّظَامِيَّاتِ بِبَغْدَادَ وَنَيْسَابُورَ وَغَيْرِهِمَا، وَكَانَ مَجْلِسُهُ عَامِرًا بِالْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ ، البداية والنهاية : أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (774 هـ)، ت: عبدالله عبدالمحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات بدار هجر: هجر للطباعة والنشر – الجيزة .الطبعة: الاولى - 1997 م. البداية والنهاية : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: 774هـ) المحقق: علي شيري الناشر: دار إحياء التراث العربي الطبعة: الأولى 1988 م .125/16 – 126، والكامل في التاريخ: أبو الحسن علي محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير (المتوفى: 630هـ) ت: عمر تدمري .دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان. الطبعة: الأولى، 1997م .8/ 354 – 356 -357 ، وسير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (المتوفى: 748هـ).دار الحديث- القاهرة، الطبعة: 1427هـ-2006م.19/ 94/ - 96 رقم4476(نظام الملك).

10 - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (المتوفى: 748هـ) ت: عمر عبد السلام التدمري : دار الكتاب العربي، بيروت، ط2 1993 146/23.

11 - المنتظم في تاريخ الأمم والملوك جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي (المتوفى: 597هـ) ت: محمد عطا، مصطفى عطا: دار الكتب العلمية، بيروت .الطبعة: الأولى، 1992م .: 16/ 306.

12- عناية المسلمين بالوقف خدمة للقرآن الكريم، عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سليمان، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية ، (د – ط). ، ص 13.

13 - البداية والنهاية لابن كثير5/16.

14 - البداية والنهاية لابن كثير114/16.

15 - البداية والنهاية لابن كثير 92-91/16.

16 - البداية والنهاية 118/16.

17 - المصدر السابق 95/16.

18 - ينظر: تاريخ الإسلام، للذهبي، ت: عمر التدمري: 6/46 ، والبداية والنهاية لابن كثير 17/ 151.

19 - تاريخ الإسلام ، للذهبي ، ت: عمر التدمري، 46/ 453.

20 - البداية والنهاية، لابن كثير: 17/ 212- 213-261.

21 – ينظـــــر: الدارس في تاريــخ المدارس. عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (المتوفى: 927هـ). ت: إبراهيم شمس الدين : دار الكتب العلمية .الطبعة: الأولى - 1990. 100/2.

22 - البداية والنهاية، لابن كثير ، ت: علي شيري: 151/13 – 404.

23 - ينظر: الدارس في تاريخ المدارس : عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي 105/2 - 106.

24 - مجلة التاريخ العربي ، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، تعني بالتاريخ العربي والفكر الإسلامي، مجلة علمية محكمة. الموقع المكتبة الشاملة.، ص: 10132 - 10133 .الموقع المكتبة الشاملة.

25 - صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري:، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: توزيع دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، د- ط. جزء منه جاء في مقدمة صحيح مسلم وهو عنده صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب المقدمة، 6/1.

26 - المرجع السابق، كتاب : المقدمة، باب: النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم الحديث5، 11/1.

27- صحيح البخاري : الجامع الصحيح: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ،الناشر: دار طوق النجاة،، لبنان – بيروت، ط1، 1422 هـ . كتاب: العلم، باب: من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم الحديث :127، 37/1.

28 - سورة النساء ،الآية :6

29 - ميزان العمل :أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ)، حققه ت: سليمان دنيا ،الناشر: دار المعارف، مصر الطبعة: الأولى، 1964 م.، ص: 367 - 368 .

30 - مقدمة ابن خلدون .عبدالرحمن بن خلدون، الناشر: دار القلم –بيروت، لبنان، د- ط سنة:1967م. مقدمة ابن خلدون .عبدالرحمن بن خلدون، الناشر: دار الجبل – بيروت، لبنان ، د- ط.، ص: 589.

31 - مقدمة ابن خلدون، لابن خلدون ، ص: 431.

32 - إحياء علوم الدين، للغزالي، 73/3

33 - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لابن مسكويه ، تحقيق: لابن الخطيب، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، د- ت.، ص: 73

34 - ينظر: المرجع السابق ، ص 74 ، وتاريخ التربية الإسلامية، أحمد شلبي، الناشر: دار الكشاف، بيروت- لبنان، د- ط. ، ص 278.

35 - ينظر: السياسة : الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي ، شرف الملك: الفيلسوف الرئيس (المتوفى: 428هـ)، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: مؤسسة شباب الجامعة –الإسكندرية الطبعة: الأولى، د: ت. ، .ص: 101.

36 - المقدمة ابن خلدون ،لابن خلدون .ص:438.

37 - ميزان العمل، للغزالي، تحقيق : سليمان دنيا، ص: 366 -367.

38 - سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: 275هـ) ، ت: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر : دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م.، كتاب البيوع ، باب في الثمر بالتمر،5/ 246، رقم الحديث: 3359.

39 - سنن النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ)،ت: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب. الطبعة: الثانية، 1406هجريا -1986م ، كتاب البيوع، باب التجارة،7/ 264، رقم الحديث 4526.

40 - رواه البخاري ، كتاب العلم ، باب الحياء في العلم، 1/ 28، رقم الحديث131. ورواه الترمذي، باب: ما جاء في مثل المؤمن القارئ للقرآن وغير القارئ 151/5 رقم الحدبث2867. وقال حديث حسن صحيح . سنن الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر، ط2، 1395هجريا -1975 م.

41 - سنن ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: 273هـ) ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون:، الناشر: دار الرسالة العالمية .الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م. ، كتاب: الطهارة وسننها، باب: الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروث والرمة، 208/1، رقم الحديث312، وقال ابن الملقن في البدر المنير: (وَأَسَانِيده كلهَا صَحِيحَة ، وَأَصله فِي صَحِيح مُسلم) ، البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى : 804هـ) .ت: مصطفى أبو الغيط و عبدالله بن سليمان وياسر بن كمال: دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض-السعودية. الطبعة : الاولى ، 2004 م. ، 298/2.

42 - سورة الحجرات ،الآية : 10.

43 - سورة الزخرف، الآية :67.

44 - ميزان العمل، للغزالي، ت: سليمان دنيا، ص 363 - 364 .

45 - ينظر: تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، لابن جماعة، تحقيق: محمد هاشم الندوي، الناشر: دائرة المعارف وصورته دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. 1354هـ ، ص : 201-202-203- 204، وينظر: تاريخ المدارس الوقفية في المدينة المنورة، طارق بن عبد الله حجار، الناشر: الجامعة الاسلامية، بالمدينة المنورة – السعودية، طبعة العدد 120، 2003 م.

46 - التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك . عبد الغني محمود عبد العاطي، دار المعارف- مصر د- ط.ص:305.

47 - التربية الإسلامية في المغرب أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسيـــــة، محمد عادل عبد العزيز، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د- ط .ص: 52.

48 - التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ،عبد الغني محمود عبد العاطي ص:206

49 - البداية والنهاية ، لابن كثير، تحقيـــق : علي شيري 163/13

50 - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ،لابن الفوطي، ت: مهدي النجم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 ، د:ت.، ص: 58- 59.

51 - ينظر: الوقف وبنية المكتبة العربية استبطان للموروث الثقافي، يحي محمود ساعاتي، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، ط2، 1996.، ص 41 -44.